مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 12 عدد: 2، يونيو 2023
ص: 442 - 458 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

بلاغة الصورة البيانية في الحديث النبوي -قراءة في نماذج من صحيح البخاري-

The Eloquence of the Rhetorical form in the Prophetic Hadith - a Reading of Examples from Sahih Al-Bukhari -

شهيرة برباري *
Chahira Barbari
مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها
جامعة محمد خيضر - بسكرة (الجزائر)
University of Mohamed Khider - Biskra (Algeria)
chahira.barbari@univ-biskra.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/03	تاريخ القبول: 2022/11/25	تاريخ النشر: 2023/06/02

مُلخّص البحث

تأتي هذه الدراسة لتعرض لقواعد ونظرات من مسائل الدرس البلاغي، محددة بباب الصورة البيانية على اختلاف مظاهرها؛ هذا الباب الواسع الذي اهتم به العلماء والباحثون وتتبعوه في كلام العرب، في محاولة منا لتطبيقه على نص بليغ له قيمة علمية وعملية وقوة تأثيرية وإنجازية؛ إنه الحديث النبوي ممثلا في بعض الأحاديث الواردة في صحيح البخاري، وتأتي هذه القراءة التحليلية الجمالية في سياق الاستفادة من المبحث البلاغي "الصورة البيانية" للتوصل إلى استنطاق وكشف ما بالخطاب النبوي من بلاغة وحسن بيان وتصوير، وانعكاس ذلك على الجانب الدلالي، والجمالي، والانفعالي، والعبادي؛ والهدف في ذلك لزوم البنية البلاغية من خلال الصورة دون الاستغراق في الجانب الشرعي الذي له أهله.

الكلمات المفتاح: البلاغة؛ جماليات؛ الحديث النبوي؛ صحيح البخاري؛ الصورة البيانية.

Abstract :

This study try to present the rules of rhetorical course issues limeted by (form) chapter in its different forms. This vaste chapter was interested by sholars and scientists, so they follow it in arabic language.We try in this study to applied it on an eloquent texte. Wich has a graet scientific and practical value, and also a huge influence and excute power ; its the prophetic speech in some Ahadith in Sahih Al-Boukhari;the reliance was on the book Fath al-Bari with the explanation of Sahih al-Bukhari by al-Hafiz Ibn Hajar al-Asqalani, may God have mercy on him; It is necessary to be reassured about the texts under study because they are related to his hadith, peace be upon him. This study sing and aesthetic reading come in context of benefit from rhetorical them of form in order to hearing, and discovring the rhetoric, and good style of prophetic speech, and its reflection on meaning, aesthtical, emotional and devotional side. With

* شهيرة برباري: chahira.barbari@univ-biskra.dz

the aim of rhetorical structure need throngh the (form) without preoccupied with the devotional side which has its

Keywords: Rhetoric; Aesthetics; Prophetic speech; Sahih Al-Boukhari; Form.

مقدمة:

لا يخفى على أحد تميز الخطاب النبوي الشريف عن غيره من أصناف الخطاب في التأثير وتبليغ المعنى المراد وإصابة الهدف المنشود في التبليغ، وإن مما لا شك فيه أن الحديث النبوي لا يسمو إليه بيان ولا ينافسه كلام بشر، وتبقى الصورة البيانية في الحديث الشريف مرتبطة بالمعنى وتقريبه، فضلا عن اهتمامها بإثارة الانفعال؛ فهي إذن جمالية هادفة وصورة تعبر عما يسمى في البلاغة (بالبيان) بما فيه من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز عموما.

محاولين في ذلك تقديم إشارات جمالية لهذا البيان الشريف ممثلا في بعض الأحاديث الواردة في صحيح البخاري ، والهدف هو التأمل في دور الجانب البلاغي للبيان النبوي في تحقيق الغاية السامية، بتبليغ الدين وهداية الإنسانية.

أولا: بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم:

يعد الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم حيث كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل يمده بالسنة التي تفسر ذلك، فكل ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير مصدره الوحي قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1]؛ فإذا كان القرآن الكريم يمثل قمة البلاغة وذروة البيان، فإن مما لا شك فيه أن السنة النبوية تأتي في المحل الثاني؛ ذلك أن إشارات القرآن الكريم وإجماله احتاج إلى بيان وتفصيل فكانت السنة هي الشارح لما أوجز، والمفصل لما أجمل، والمبين لما تحت العموم من هيئات وصفات، وفروع وجزئيات[2].

فلا عجب أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(أُوتِيتُ القُرْآنَ ومِثْلَهُ مَعَهُ)**[3]؛ فهذه العبارة توحي أن حكم الحديث النبوي هو حكم القرآن الكريم من جهة المصدر وهو الوحي، مع تميز للقرآن الكريم عن السنة النبوية التي تختلف عنه في لفظها الذي ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعناها من عند الله عز وجل؛ لذلك نسب النبي صلى الله عليه وسلم الفصاحة إليه[4] فقال: (أَنَا أَفْصَحُ العَرَبِ بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْش وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْد)، ولم يكن هذا افتخارا منه صلى الله عليه وسلم، وإنما كان تقريرا لحقيقة ثابتة، وكيف لا يكون أفصح العرب وهو خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى قلبه نزل القرآن العظيم، وقد رباه رب العالمين، ونشأ وترعرع بين عرب فصحاء معربين.

وتعد بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم من أبرز مظاهر عظمته، وأجلى دلائل نبوته، فهو عليه الصلاة والسلام صاحب اللسان المبين والمنطق المستقيم، والحكمة البالغة والكلمة الصادقة، والمعجزة الخالدة، "أما فصاحته فهي من السمت الذي لا يؤخذ فيه على حقه، ولا يتعلق بأسبابه متعلق، فإن العرب وإن هذبوا الكلام وحذقوه

وبالغوا في إحكامه وتجويده، إلا أن ذلك كان منهم عن نظر متقدم ورواية مقصودة، وكان عن تكلف يستعان له بأسباب الإجادة التي تسمو إليها الفطرة اللغوية فيهم، فيشبه أن يكون القول مصنوعا مقدّرا على أنهم مع ذلك لم يسلموا من عيوب الاستكراه والزلل والاضطراب...، بيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح العرب على أنه لا يتكلف القول ولا يقصد إلى تزيينه ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه"[5].

وهذا الجاحظ (ت255ه) يصف كلام النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصَّنعة، ونُزِّه عن التكلف...، استعمل المبسوطَ في موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر، وهَجَر الغريبَ الوحشيَّ، ورغِبَ عن الهجين السُّوقيّ، فلم ينطِقْ إلا عن مِيراثِ حكمَةٍ، ولم يتكلَّم إلا بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق، وهو الكلامُ الذي ألقَى الله عليه المحبّةَ، وغشَّاهُ بالقَبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبَيْن حُسنِ الإفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقِلّةِ حاجة السامع إلى معاوَدته، لم تسقط له كلمة، ولا زَلّت به قَدَم، ولا بارَتْ له حجَّة، ولم يَقُم له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبدُّ الخُطَبَ الطِّوال بالكلِم القِصار ولا يَلتمِس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصِّدق ، ولا يطلب الفَلْج إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل الموارَبة، ولا يهمِز ولا يَلْمِز، ولا يبطئ ولا يَعْجَل، ولا يُسْهِب ولا يَحْصَر، ثم لم يَسْمع الناسُ بكلامٍ قَطّ أعمَّ نفعاً، ولا أقصَدَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهلَ مخرجاً، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوَى، من كلامه صلى الله عليه وسلم"[6]؛ هذا النص للجاحظ على طوله قصير، وفي إطنابه إيجاز، يصف بدقة روعة بيان أبلغ لفظ إنساني، وهو من أثرى ما قيل في بلاغة كلام صلى الله عليه وسلم.

والحديث الشريف الذي بين أيدينا يدعونا إلى أن نتأمل بلاغته وبيانه، للوصول إلى المعاني واستكناه الغايات على ضوء خصائص أساليب الحديث النبوي الشريف، الذي وصف صاحبه بأنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم؛ فأما قوله صلى الله عليه وسلم: ((بُعِثْت بِجَوَامِعِ الكَلِمِ))[7] فيحمل على ما آتاه الله من حسان المعاني وكبارها ، تجتمع له تحت ألفاظه الموجزة، هذه الألفاظ النبوية التي "يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم"[8]؛ فالإبلاغ أقوى الإبلاغ في كلام النبي صلى الله عليه وسلم هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار بل اجتماع العلوم في بضع كلمات، وقد يبسطها الشارحون في مجلدات؛ فليس معنى الكلمة الجامعة مقصورا على اختصار الفكرة في اللفظ القليل، بل يتعداه إلى الإشارة بالكلمة إلى مجموعة كبرى من المبادئ التي تنتظم فنا أو علما بأكمله[9]. وهذا أرقى مستويات البلاغة في الكلام تحت مفهوم (البلاغة هي الإيجاز)، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يتكلم

على وجه الاختصار ويعبر بقلة الألفاظ عن المعاني الكثيرة التي لا تتغير أغراضها ودلالاتها وغاياتها، ولا يتغير مقتضى حالها بتغير الزمان والمكان.

فإذا كانت البلاغة هي: "العلم الباحث عن القواعد التي تصير كلاما دالا على جميع المراد وواضح الدلالة عليه، ثم إن هنالك محسنات للكلام متى اشتمل عليها اكتسب قبولا عند سامعه...، فالبلاغة هي العلم بالقواعد التي بها يعرف أداء جميع التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها وإيداع المحسنات بلا كلفة مع فصاحة الكلام[10]، والبيان هو: "علم به يعرف البليغ كيفية إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة على حسب مقتضى الحال"[11].

فالبلاغة النبوية هي ترقي الكلام النبوي إلى أعلى درجة من الفصاحة والبيان؛ فهو دقيق اللفظ واضح المعاني، شريف القصد، عميق الفكر، عظيم الفائدة والغاية، دون إغفال ما للبيان النبوي من جوانب جمالية للألفاظ والصور في علاقاتها بالمعاني والأغراض، وكلام الرسول عليه الصلاة والسلام قد تميز بلطائف بيانية وأسرار بلاغية كثيرة جدا فإن من أمعن النظر وقلب عقله فيها، فإنه سيعثر على فوائد جمة ولطائف مباركة وهذا ما يطلق عليه بشكل عام البلاغة النبوية، وأن النبي صلى الله عليه وسلم استمد البلاغة من كتاب الله عز وجل.

ولبيان رسول الله من سهولة العرض وعذوبة الأسلوب ما يجعل المتلقي لا يكابد عناء في حسن المتابعة وانسياب المعاني في ذهنه، أضف إلى ذلك ما يجده في بيانه -صلى الله عليه وسلم- من حرية أسلوبية متجددة تنتقل بين الخبر والإنشاء ولا تدع المتلقي بعيدا عنها، بل هي مستثيرة له بما عرفه أهل الأدب من وسائل التنبيه والإثارة وحسن التصوير؛ لتخرج المعاني عن خفائها الفكري المجرد إلى وضوح المشاهد المحسوسة التي لا تخطئها عين ولا تنبو عنها أذن ولا تجافيها بقية الحواس؛ فالحديث النبوي يمثل نصا أدبيا في غاية الروعة من الجمال في الألفاظ وتنوع مستويات التعبير وتعدد الصور والتراكيب المتنوعة في تقديم الموضوع؛ وقد حوى هذا النص الشريف صنوف البلاغة ومستوياتها المتعددة، وسيكون تركيزنا على الجانب البياني منه محاولين النظر في بعض ملامح الصورة البلاغية في النص النبوي في أنواعها المختلفة لما لها من دور كبير في التبليغ لأنها تستهدف توضيح المعنى وتقريبه للسامعين في الوقت الذي تسترعي الأسماع بما فيها من جاذبية وتلوين.

وقد اطلعنا في المتن الذي بين أيدينا على الأحاديث التي تجلت فيها الصور البلاغية من غير ترتيب، متناولين بعضها بالقراءة البلاغية، وفق الاختيار والتمثيل لا الإلمام والحصر، سالكين نهج الإيجاز الذي لا يرقى إلى الإحاطة بهذا الموضوع الجليل والنص الشريف.

ولا يخفى علينا أن الحديث عن الصور البلاغية وجمالياتها لا يتجاوز الإشارة إلى علاقة الواقع بالخيال في تشكيلها؛ فوجود الخيال في الحديث النبوي أمر غير متوقع إلا عندما يكون مصدرا للتشبيه والتمثيل والتصوير؛ فالبيان النبوي الذي يعتمد التصوير الذي يعتمد بدوره الخيال يأتي في أعلى درجات الصدق، وعلى ذروة

سنام البلاغة لأنه متصل بهذه النفس الصافية التي تربعت على قمة السمو الروحي، وهذا يدفعنا إلى الحديث عن الخيال بوصفه طريقة من طرق التعبير عن المعاني الصادقة، والتصورات المعقولة طالما نتحدث عن الخيال وصلته بفن الوصف في البيان النبوي، إن إطلاق لفظ التخيل أو الخيال في صدد الحديث عن المعاني الصادقة، والتصورات المعقولة لا يحط من قيمتها أو يمس حرمته بنقيصة، ولقد كان من أساليب القرآن في الدعوة أن ضرب الأمثال الرائعة، وصاغ التشابيه الرائقة، والاستعارات الفائقة، والكنايات اللطيفة، ويضاف إلى ذلك ما كان ينطق به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأقوال الطافحة بضرب الأمثال والاستعارات والكنايات التي لم تخطر على قلب عربي قبله فكان مطلع الإسلام مما زاد البلغاء خبرة في تصريف المعاني وترقى بهم في صناعة التخييل والوصف الدقيق النابع من البصيرة النافذة، وحسن الإدراك، والتدفق العاطفي أبلغ من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو الوسائل المألوفة في التصوير، إنه ينقل لك أمام عينيك المشهد حتى تكاد تحس به بحواسك وتلمسه بيديك[12].

وفيما يأتي بعض الإشارات التطبيقية حول بلاغة الصورة في الحديث النبوي الشريف وما حملته من أسرار جمالية ولطائف فنية.

ثانيا: تجليات الصورة في الحديث النبوي:

تعد الصورة معيارا فنيا في دراسة النص الأدبي ونقده، بوصفها قيمة جمالية تحددها أخيلة الأدباء، وبراعتهم في اختيار الأدق وقعا على نفسية متلقيهم؛ لأنها "تمثيل وقياس نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا"[13]، وهي وسيلة لنقل الفكر والعاطفة معا، كونها تستوعب أبعاد الخيال المدرك واللامدرك في آن.

ومفهوم الصورة البيانية درس قديم انبرى له القدماء من النقاد والبلاغيين العرب؛ وقد اتخذت قيمة في تشكيل النصوص، لأنها تجمع بين الواقع والخيال "وحين نتحدث عن الصور البيانية في الحديث النبوي الشريف إنما نتحدث عن لون من ألوان الإبداع النبوي جاء على أكمل تمامه وأبهى أصباغه وأورف ظلاله، وبه ارتفع أسلوبه إلى منزلة لم يبلغها أديب في العربية...، فالمتتبع للآثار النبوية يجد صورها الفنية من أحسن المثل لما تنجذب إليه النفوس من القول، لما فطر عليه صلى الله عليه وسلم من معرفة عناصر التأثير في البيان وأوجه الجمال في اللسان؛ فجاء حديثه من البلاغة في موضع تتطلع نحوه الأبصار وتتقاصر دونه الأعناق"[14].

والصورة البيانية باب واسع وله فوائد عظيمة منها إيضاح المعنى العام المقصود ومنها الإيجاز والاختصار، ويحصل بها إيناس للنفس، حيث يخرج لنا الخفي من المعاني إلى التجسيد والوضوح والجلاء، ولا يخفى علينا اتساع هذا الباب بارتباطه بجلال النص النبوي الشريف الذي يحمل قيمة كبيرة من الناحية الجمالية؛ فهو نموذج بلاغي رفيع له مقوماته وعناصره الأصيلة المتميزة، والتركيز فيه ينصب على كشف عناصر الجمال (الصورة) وقيمتها الفنية من خلال الوسائل التصويرية المنحصرة في التشبيه والكناية والاستعارة على سبيل الإشارة والتمثيل والاختيار، مع بيان تأثيرها على الجانب النفسي والإبلاغي لها.

1- الصورة التشبيهية في البيان النبوي:

التشبيه علاقة مقارنة تجمع بين طرفين، لاتحادهما واشتراكهما في صفة أو حالة أو مجموعة من الصفات والأحوال، هذه العلاقة قد تستند إلى مشابهة حسية، أو مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهني الذي يربط بين الطرفين المقارنين، دون أن يكون من الضروري أن يشترك الطرفان في الهيئة المادية، أو في كثير من الصفات المحسوسة[15]؛ "حيث يكفي: أن تثبت لهذا المعنى من معاني ذاك أو حكما من أحكامه، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد، وللحجة حكم النور في أنك تفصل بها بين الحق والباطل"[16]، وسواء أكانت المشابهة بين الطرفين تقوم على أساس من الحس أو من العقل، فإن العلاقة التي تربط بينهما هي علاقة مقارنة وليست علاقة اتحاد أو تفاعل[17].

وقد نظر البلاغيون في تعريف التشبيه إلى المعنى اللغوي لكلمة 'شبه' وهو 'مثل'، تقول: فلان شبه فلان أو مثله، وشبهته به أي مثلته به، والمعنى الاصطلاحي هو إلحاق أمر بأمر آخر في صفة أو أكثر بأداة من أدوات التشبيه ملفوظة أو ملحوظة[18]، هذه الأدوات تفصل بين طرفي التشبيه وتحفظ لهما صفاتهما الذاتية، والتشبيه يفيد الغيرية ولا يفيد العينية، ويوقع الائتلاف بين المختلفات ولا يوقع الاتحاد[19]، "فلو أشبه الشيءُ الشيءَ من جميع جهاته لكان هُوَ هُوَ"[20]، فهو قائم على التمايز في صفات والتشابه في أخرى، بأن ينوب أحد الموصوفين مناب الآخر في بعض الصفات المشتركة ضمن علاقة مقارنة بينهما في حضور هذه الصفات من عدمه.

ولما كانت الغاية من البيان النبوي هي الكشف عن الحقائق التي أرسل بها عليه الصلاة والسلام (التبليغ) وتوضيحها، فقد كان مما توصل به إلى هذه الغاية أسلوب التشبيه الذي شاع وكثر في كلامه عليه الصلاة والسلام عند عرضه للمعاني المختلفة، وذلك لما للتشبيه من أثر في النفس، ودور في إيضاح المعاني وبيان الفِكَر، وقد تنوعت التشبيهات في البيان النبوي وجاءت الأحاديث الشريفة حافلة بالصور التشبيهية.

أ- من ذلك ما رواه 'عبد الله بن عمر' رضي الله عنهما قوله: **(أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ : كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)**[21]؛ إذ شبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل لأن الغريب قد يسكن في بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلاد شاسع وبينها أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق، فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة[22]، ووجه الشبه هنا هو الغربة والممر وعدم الاستقرار الذي يميز الدار الدنيوية، فالنبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يبين قيمتها عند العبد وحقها الذي لا يعدو أن يكون كحق بلد عند غريب عنها أو عابر سبيل لا حظ لهما فيها، وهي صورة تشبيهية تترك الخيال يصور أوصاف الغريب وعابر السبيل ما يجعل الآمال تنحصر فقط في التفكير والعمل للتزود تزود الغريب في غربته وعابر السبيل في رحلته، وهي صورة لا تخرج عن البيئة أيا كان زمانها ومفهوم الغريب وعابر السبيل فيها؛ وهو تشبيه مرسل جاء بأداة التشبيه 'كأن' لأن المقام اقتضى ذلك فهي تدل على قوة المشابهة بين الطرفين فهو تشبيه حسي حقق غرض البيان والإيضاح وغاية التأثير في المتلقي(ابن عمر) رضي الله عنهما ابتداء وجميع المسلمين وقد جاء المشبه به أمرا محسوسا لتقريب المعنى للأفهام.

وقد نقل لنا الحديث في مشهد عظيم بين النبي صلى الله عليه وسلم والصحابي الجليل الذي نقل الصورة في قوله: **(أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي)**؛ ما يوحي بلفت انتباه المستمع وتركيزه لأهمية وشرف الغاية من الحديث الذي شكل بلفظه المختصر وصورته الراقية سمو المعنى وعمق الفكر؛ فتحقق غرض تأكيد المعنى وتعميق الدلالة، ناهيك عن قيمة العاطفة الإنسانية الراقية للنبي صلى الله عليه وسلم؛ كل ذلك منح الصورة التشبيهية قيمة جمالية أسهم في بيانها اجتماع القيم البلاغية والإنسانية والعقدية؛ فكان لها أثر بالغ في نفس المتلقي مما يزيده إيمانا ويقينا.

ب-ومن الصور التشبيهية القائمة على التخييل ما روي عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ, وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ؛ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ, وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ, وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ)**[23]؛ في هذا التصوير النبوي البليغ يؤصل النبي صلى الله عليه وسلم لقيمة وأهمية كتاب الله الكريم، وغرضه بيان هذه القيمة والترغيب في رعايتها والاعتناء بها من الفرد المسلم في حياته، وكان تركيزه عليه الصلاة والسلام على مبدأ قراءة القرآن، ودورها في حياة المؤمن الذي شكل بقراءته من عدمها طرف 'المشبه' في الصورة التي بين أيدينا؛ التي جاءت مركبة من أربع صور تشبيهية جزئية قائمة على التضاد بين النفي والإثبات (يقرأ/ لا يقرأ) أو بشكل صريح (مؤمن/ منافق)؛ بترابط وتداخل عجيب في تناسقه وانسجامه وتناسبه في لفظه ومعناه، بإيجاز بليغ أضفى على الصور جمالية وروعة فنية للتصوير النبوي، منفتح بإيجازه على المعاني والفِكَر السامية التي تخاطب الروح.

تقوم **الصورة الأولى** على تشبيه المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة التي جمعت بين الريح الطيبة والطعم الطيب؛ في إشارة إلى ما يعتري المؤمن القارئ من بركة القرآن وفضله شكلا ومضمونا، عقلا وروحا، وهو تشبيه مرسل اعتمد الأداة (كمثل) للجمع بين الطرفين، إضافة إلى الجانب التخييلي فيه الذي ينقل المتلقي إلى الخيال متفكرا في الصورة بتأثير عجيب؛ فالريح الطيبة والطعم الطيب يتحقق في وصف ثمرة الأترجة 'المشبه به'، ولا يتحقق في وصف القرآن إلا تخييلا في ارتباطه بوصف الأترجة بوجه شبه ينقل الرائحة والطعم من الأترجة إلى الظاهر والباطن للمؤمن القارئ القرآن.

والصورة الثانية تقوم على تشبيه المؤمن الذي لا يقرأ القرآن في مقابلته بالمؤمن الذي يقرأ القرآن، مع نفي القراءة، بالتمرة ذات الطعم الحلو واللارائحة في مقابلتها بالأترجة مع نفي الرائحة، في تشبيه تخييلي قام على وجه شبه يفسر الإيمان بالباطن أو المضمون (الطعم)، وقراءة القرآن بالظاهر أو الشكل (الرائحة).

أما **الصورة الثالثة**؛ فهي تقوم على تشبيه المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحانة التي انفردت بصفة الريح الطيبة دون الطعم الذي وصف بالمرارة؛ إيحاء بما تضفيه قراءة القرآن الكريم وإن صاحبها منافقا.

والصورة الرابعة؛ تقوم على تشبيه المنافق الذي لا يقرأ القرآن في مقابلته بالمنافق الذي يقرأ القرآن مع نفي القراءة، بالحنظلة ذات الطعم المر واللارائحة في مقابلتها بالتمرة.

كل هذه التشبيهات مجتمعة شكلت لنا صورة بيانية مركبة، جمع فيها النبي عليه الصلاة بأسلوب بارع ووصف بديع منسجم لا يعتريه اضطراب ولا خلل، هذا التمثيل البياني الرائع الذي جلى المعاني الخاصة بعلاقة المسلم بالقرآن الكريم وقراءته، وما تحمله هذه العلاقة من فضل للقرآن الكريم من عدمه بحسب هذه العلاقة في ظاهرها وباطنها، وظاهرها دون باطنها، وباطنها دون ظاهرها، ودون الظاهر والباطن؛ بإيجاز بليغ مذهل في جمعه ومنعه، عجيب في إحاطته، مدهش في كليته، وكل ذلك في سهولة مأخذ وبساطة لفظ وعمق فكرة وسمو معنى وجمال وصف وبراعة تصوير، دون تعقيد أو تكلف أو تنافر، بحيث"أضاف إلى الحقيقة الفكرية صورة جعلتها تختال أمام العيون في ثوب بهيج، ولا شك أن سامعه سيقارن بين الشبه والشبيه فيزداد تأثرا وانفعالا بما سمع، ثم يندفع إلى التفكير فيما يسمع مدققا محللا إذ مس أوتار قلبه مسا حيا.

وإذ بلغ النبي صلى الله عليه وسلم بتصويره مبلغ التأثير القوي فقد أدى رسالته الإبلاغية والبلاغية على أكمل ما يراد"[24].

ج- ومن صور التشبيه ما وردعَن سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **(أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى)**[25].

هذا الحديث العظيم الذي يمثل بشرى عاجلة لكافل اليتيم وأية بشرـ قدمها النبي صلى الله عليه وسلم في صورة تشبيهية بديعة رائعة، كان صلى الله عليه وسلم مع كافل اليتيم أحد طرفيها (المشبه)، في تشبيه حسيـ بإصبعي اليد السبابة والوسطى (المشبه به) الذي يؤكد حالة الكافل وأجره فوجه الشبه هو التلازم، واللطائف التي فرقت على الطرفين جديرة بالإعجاب فالمعية أو المصاحبة في جانب المشبه إرصاد إلى جنس الجزاء الذي يدل عليه كمال عبارة وجذب لانتباه المخاطب إلى أن يسعد بهذه النعمة المثل ثم التعجيل بأصل المجازاة وهو الوجود في الجنة التي تمثل الغاية من هذه الصورة الراقية.

أما وجه الشبه فقد حمل صورتين: لفظية تفيد التنبيه (هكذا)، وإشارية رمزية بإصبعي اليد تعاضدت الصورتان لتؤكد إحداهما الأخرى في تناغم بديع بين طرفي الصورة لفظا وإشارة أسهمت في جلب انتباه المتلقي واستفزاز خياله التصويري في الربط بينهما للوصول إلى الغاية الشريفة في مقاربة تسوية طبيعية أضفت ملمحا جماليا؛ لحسن اختيار الصورة وبراعة التنسيق بين أجزائها لتسمو الروح وتزكو ، كما حملت معية النبي صلى الله عليه وسلم شرفا وتأكيدا لحسن الجزاء وكفى بها من معية كريمة زادته المعية التجسيدية بين السبابة والوسط والعلاقة التجاورية الدائمة بينهما خير مؤكد، والبديع في هذه الصورة التشبيهية التمثيلية هو الاختصار والإيجاز في اللفظ؛ الذي يشمل على معان كثيرة كان لها رونق، وتمكين في النفس

وآثار إيمانية جليلة كما كان لها عظيم التأثير على الفكر لقيمته الفنية العالية وقوة بلاغته ودقة الاستعمال الذي يقرر لهذا الدين القويم في دقائقه وجزئياته عن طريق تصوير المعاني.

د- ومن صور التشبيه ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ وَفِي حَدِيثِ بَكْرٍ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **(أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا)**[26].

يريد عليه الصلاة والسلام أن يقرر لأمته فضيلة الصلاة ويؤكد أجرها ليصبروا عليها فمثل المؤمن الذي يعد نفسه للصلاة فيصليها حتى يتم فرض اليوم بحال المؤمن الذي يمر ببابه نهر فهو يغتسل فيه خمس مرات كل يوم، والمماثلة بين الحالين مقصود منها إثبات الغاية، وقد جاءت للتقرير مصرحا بها بوجه التقابل، فتكرار الصلوات يمحو الخطايا كما أن تكرار الاغتسال لا يبقي من الدرن شيئا[27].

وصورة المثل التي جاءت بأسلوب الاستفهام لجلب الانتباه في سياق تقريري، وصورة النهر الذي يجري بالباب وبهذا القرب يوحي بالحياة ويشعر بالجمال وهي تخاطب الخيال لاستحضار هذا المشهد الطبيعي الحي وتكراره على مدار اليوم خمس مرات يحمل مع حياته الطبيعية حياة للقلوب وهو غرض إيماني سعى من خلاله النبي صلى الله عليه وسلم إلى ترسيخ قواعد عبادية ترتبط بالصلاة عماد هذا الدين فجاءت الصورة تحمل حياة بديعة كمثل ما تمثله الصلاة في حياة المؤمن، والصورة مقابلة بين هيئتين بلغة بليغة جزلة تستثير المتلقي بألفاظها الدقيقة العميقة ومعانيها العظيمة السامية وهذا الحوار الراقي بين النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام الذي يقرر سعة صدره صلى الله عليه وسلم؛ حيث فتح باب الحوار مشاركة لهم ما يقوي انتباههم وتركيزهم فيكون الكلام أدعى إلى الرسوخ والفهم بل والحفظ، ومن جانب آخر يزيد الصورة إيضاحا وبيانا وتأكيدا للمعنى الذي جاء بغرض الترغيب لتحقيق هذا النعيم المتجدد الدائم ولعل في استخدام المضارعة مثل قوله 'يغتسل' والتكرار والكثرة 'خمس مرات، كل يوم' ما يوحي بذلك، كما تحقق ذلك من خلال التقريب والربط بين الطرفين بالأداة 'مثل' التي أفادت المقابلة والمعادلة وتوضيح طرف بطرف ، وهو تشبيه مرسل حسي قائم على الهيئة، كما لا يخفى ما لهذا الأسلوب من بيان لحسن تعليم النبي صلى الله عليه وسلم حيث يلقي الخبر بأسلوب الاستفهام لاسترعاء الانتباه يتلخص ذلك في قوله 'أرأيتم' وهذا لأهمية الموضوع المخبر عنه وجلاله (الصلاة)كل ذلك ساهم في إضفاء صبغة جمالية تشكلت مع هذا التقابل المتناسق البديع في مقاربة تشبيهية بين الهيئتين، وسموالدلالة وعمقها الإيماني في نفس المتلقي الذي يرحل بخياله ليعيش حياة هذه الصورة الوصفية الرائعة البديعة ما يزيده تعلقا قلبيا بالعبادة وخشوعا وهيبة ومحبة وصدقا ويقينا.

هـذه بعـض الصـور التشـبيهية الـتي وردت في البيـان النبـوي الشريـف مـن النصـوص الـتي بـين أيـــدينا، وهي قطـــرة مـــن بحـــر حاولنـــا فيهـــا -عـــلى قلتهـــا وإيجـــاز مـــا ورد حولهـــا قدر الإمكان أن نظهر ملمحا بسيطا من بلاغة التشبيه في هذا الخطاب الجليل البديع الراقي.

2- الصورة الاستعارية:

تأتي نظرة النقد العربي والبلاغة القديمة إلى الاستعارة من تصور أكيد لدى النقاد والبلاغيين أن أساسها التشبيه، والثابت أن الاستعارة تجمع بين شيئين، وهي في ذلك -كالتشبيه- لا تختلف عنه كثيرا؛ وهذا ما ألفيناه عند عبد القاهر الجرجاني في قوله: "الاستعارة هي ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان"[28]؛ وقد أدى هذا الفهم إلى عد الاستعارة تشبيها حذف أحد طرفيه، مما أحال إلى مبدأ هام قوامه المناسبة بين المستعار له والمستعار منه والمقاربة بين الطرفين؛ بأن تحضر الملاءمة بين دلالة الصورة والعلاقة بين طرفيها، وهذا المبدأ ظهر بشكل واضح لدى النقاد العرب؛ فملاك الاستعارة تقريب الشبه وتناسب طرفيها، وموضوعها هو أن يُثبتَ بها معنى بحيث لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ، ولكن يعرفه من معنى اللفظ؛ وجوهر ذلك علاقة التشبيه بين المعنيين، وهي علاقة تقوم على المشاركة بين أمرين في المعنى؛ فالمراد بالاستعارة المبالغة، لا نقل اللفظ عما وضع له في أصل اللغة.[29]

فالاستعارة بهذا الفهم وهذه الرؤية؛ تحدث تعارضا لغويا وتفاعلا بين محتويين دلاليين أحدهما هو اللفظة المستعارة، والثاني هو السياق المستعمل استعمالا حقيقيا، والمحيط بتلك اللفظة المستعارة[30]؛ إنه مبدأ التفاعل الدلالي القائم على امتزاج اللفظ بالمعنى من جهة وانسجام الأفكار والألفاظ المستعارة بما استعيرت له، وفق أساس جمالي هو التشبيه القائم بدوره على المقاربة بين طرفيه من جهة، وبين الواقع اللغوي والبعد الجمالي من جهة أخرى.

وهذه الرؤية تتفق إلى حد كبير مع ما جاء به وأقره عبد القاهر الجرجاني بقوله: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ونقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية "[31]؛ فالاستعارة تختلف عن التشبيه في كونها نقل للمعنى عن أصل وضعه اللغوي إلى معنى آخر بعلاقة المشابهة والمقاربة على سبيل الإعارة، فالاستعارة قائمة على مبدأ التشبيه في علاقة الفرع بالأصل.

وفيما يأتي قراءة لنماذج استعارية من التصوير البياني في الحديث النبوي الشريف:

أ- من أمثلة الاستعارة في الحديث النبوي عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ).**

هـذا الحـديث الشريـف حـوى أركان الإسـلام فهـو حـديث تعليمـي تأصـيلي لأمـور عقديـة وعباديـة لا يقـوم إسـلام المـرء إلا بهـا، فجـاءت في سـياق سردي إخبـاري يعـدد الأركان بأسـلوب

موجز ولغة واضحة غايتها الإبلاغ والتعليم والبيان؛ ومع ذلك لم يخل هذا التركيب الجليل من ملمح بلاغي جمالي جسدته الاستعارة صورة بيانية حملت هذا المضمون التأصيلي العظيم، وتبدو الاستعارة مع أول كلمة في الحديث في ارتباطها بالتي تليها وهي قوله صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام..)؛ قوله بني فعل لم يذكر فاعله لكونه معروفا؛ فهذا البناء بتقدير الله عز وجل، وتكمن الاستعارة في تشبيه الإسلام بمبنى له دعائم فذكر المشبه 'الإسلام' وحذف المشبه به 'المبنى'، وذكر لازم يدل عليه وهو الفعل 'بني'، وهي استعارة مكنية قامت على صورة تخييلية مثلت وصف الإسلام مع أركانه الخمسة متمثلة في الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج، بصورة مبنى أقيم على خمسة أعمدة، وقطبها الذي تدور عليه الأركان هو شهادة أن لا إله إلا الله وبقية شعب الإيمان أركانه المحيطة بمركزه، وفيها دلالة على ثبات الإسلام واستقامته وكماله في قيامه على هذه الأركان كما يقوم بأركان البناء،وقد جاءت هذه الصورة مبنية على الرمز 'البناء' في تشخيص حسي- يساهم في تقريب الفهم وبيانه وتحقيق غاية الإبلاغ، فكان لها قيمة تأثيرية وبعد جمالي ظهر في الجمع بين الطرفين بمقاربة عجيبة تعمق المعنى وتؤثر في النفس وتحقق مطلب التعليم، بإيجاز لم يؤثر على اكتمال الصورة.

ب-ومن الصور الاستعارية ما روي عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: **(كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسِيرٍ لَهُ فَحَدَا الْحَادِي فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْفُقْ يَا أَنْجَشَةُ وَيْحَكَ بِالْقَوَارِيرِ)**[32].

قال ابن حجر في شرحه: (قوله بالقوارير في رواية هشام عن قتادة رويدك سوقك ولا تكسر القوارير وزاد حماد في روايته عن أيوب قال أبو قلابة يعني النساء ففي رواية همام عن قتادة ولا تكسر القوارير قال قتادة يعني ضعفة النساء والقوارير جمع قارورة وهي الزجاجة سميت بذلك لاستقرار الشراب فيها وقال الرامهرمزي كنى عن النساء بالقوارير لرقتهن وضعفهن عن الحركة والنساء يشبهن بالقوارير في الرقة واللطافة وضعف البنية وقيل المعنى سقهن كسوقك القوارير لو كانت محمولة على الإبل... وقال الطيبي هي استعارة؛ لأن المشبه به غير مذكور والقرينة حالية لا مقالية ولفظ الكسر ترشيح)[33]؛ فهذه استعارة تصريحية مرشحة، فتصريحية؛ لأنها صرّح فيها بالمشبه به (القارورة) وحذف المشبه (النساء)، ومرشحة لأنه ذكر بعدها ما يقوي المستعار منه وهو الكسر للزجاجة هذا بالنسبة للرواية التي فيها الزيادة أما التي بين أيدينا فهي مطلقة إذ لم يقوي فيها كلا الطرفين، وقد شبههن بالقوارير لسرعة تأثرهن وعدم تجلدهن؛ فخاف عليهن من حث السير بسرعة السقوط أو التألم من كثرة الحركة والاضطراب الناشئ عن السرعة؛ أو خاف عليهن الفتنة من سماع النشيد. وهذا من استعارات النبي عليه الصلاة والسلام وبيانه ويأتي فيه بالعجيب الرائع الذي يدل على صفاء النفس.

وفي خطابه هذه صورة راقية للرفق بالنساء ومراعاة خصوصياتهن من سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، وهو يعلم غلامه 'أنجشة' والناس أجمعين قيم هذا الدين الحنيف في تعامله وجاء تعليمه عليه الصلاة والسلام بهذه الصورة البيانية البليغة الموجزة اللطيفة بملمح تعريضي-

باطنه سمو في المعاني ورقي في التعامل، وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: 'ويحك'كلمة رحمة توحي بالمعاتبة اللطيفة لإبلاغ المعنى وتأكيده.

ج/ومن نماذج الاستعارة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله: **(وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ)**[34].

في الحديث الشريف استعارة مكنية شبهت فيها يد الإنسان به؛ إذ جعلت كائنا عاقلا مستقلا بذاته ويدرك أفعاله، وقرينة ذلك الفعلان (تعلم/ تنفق)، فاليد تعلم وتنفق، ومع استقلالها بذاتها هي جزء من الإنسان؛ صاحب اليد الذي يخفي صدقته عنها وهي جزء منه، جاء ذلك تعبيرا عن المبالغة في إخفاء الصدقة وسترها حتى لا تعلم اليمين ما تنفق الشمال على قربها وتلازمهما.

صورة بديعة نقل فيها النبي صلى الله عليه وسلم بشكل تشخيصي معان جليلة عن عظيم فضل الصدقة وكبير أجرها عند الله عز وجل؛ حتى خص صاحبها بأجر وقوفه تحت ظل عرش الرحمن يوم القيامة.

هكذا أسهمت الاستعارة في في التعبير عن المعاني الوجدانية والفكر الإيمانية واللمح الإنسانية في أرقى تمظهرها، في صور إيحائية كانت أقرب إلى نفس المتلقي وأدعى إلى تأثره وإعجابه من خلال ما تحمله من علاقات لفظية ومعنوية وجمالية خفية.

3- بلاغة الكناية:

الكناية من أروع المسالك البيانية، والطرق الأسلوبية التي يعبر بها المنشئ عن المعنى، تعبيرا موجزا، يخفي تحت ظلاله لطائف مراده[35]، وقد عرفها عبد القاهر الجرجاني بقوله: "والمراد بالكناية هاهنا، أن يريد المتكلم إثبات معنى فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ ويجعله دليلا عليه"[36]؛ فالكناية أن تطلق اللفظ وتريد لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي؛ وهي تقوم على الإيماء إلى المعنى والتلميح، أو هي مخاطبة ذكاء المتلقي فلا يذكر اللفظ الموضوع للمعنى المقصود ولكن يلجأ إلى مرادفه ليجعله دليلا عليه، بأسلوب يثيره ويحمله على البحث عن المعاني وراء الألفاظ.

وشكلت الكناية إحدى سمات الخطاب النبوي، وتبدو فيه بصورة لافتة للنظر ما يسترعي التأمل ومحاولة سبر أغوارها، "والرسول عليه الصلاة والسلام يضرب المثل الكريم السخي في استعمال هذا المسلك الأسلوبي، للدلالة على المعاني دلالة ألطف وآكد وأوجز من دلالة الحقيقة المحضة"[37].

وفيما يأتي بعض الصور الكنائية في الحديث النبوي الشريف:

أ- كَانَ ابْنُ عُمَرَ لَا يَأْكُلُ حَتَّى يُؤْتَى بِمِسْكِينٍ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَأَدْخَلْتُ رَجُلًا يَأْكُلُ مَعَهُ، فَأَكَلَ كَثِيرًا، فَقَالَ: يَا نَافِعُ! لَا تُدْخِلْ هَذَا عَلَيَّ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول: (**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**)[38].

لقد اختلف في معنى هذا الحديث فقيل:"ليس المراد به ظاهره وإنما هو مثل ضرب المؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها فكان المؤمن لتقلله من الدنيا يأكل في مع واحد، والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء، فليس المراد حقيقة الأمعاء ولا خصوص الأكل وإنما المراد التقلل من الدنيا والاستكثار منها...ووجه العلاقة ظاهر...، وقد كان العقلاء في الجاهلية والإسلام يتمدحون بقلة الأكل ويذمون كثرة الأكل"[39]؛ صورة بديعة يبدو فيها المعنى وراء الألفاظ الدالة في ظاهرها على الأكل قلة وإكثارا لتدل كناية عن صفة هي الزهد في الدنيا والاستكثار منها؛ عبر عن ذلك بأسلوب غير مباشر ما أعطى المعنى عمقا وسموا وألبسه بيانا وجمالا، وهذا مما يزيد في الفائدة واسترعاء ذهن وذكاء المتلقي الذي يحاول البحث عن المعاني ويربط بينها والألفاظ بقرائن تكسبه تذوقا لجمالية الصورة وإعجابا ببراعة تركيبها.

وقد ورد في شرح هذا الحديث حوالي ثمانية شروح حسب الكتاب الذي بين أيدينا 'فتح الباري بشرح صحيح البخاري'، "وقد أول بعضهم كالنووي أن سمى الأمعاء السبعة وهي: المعدة والاثنا عشر والصائم والقولون والفانقي والمستقيم والأعور على اختلاف في التسميات، وهي ظاهر اللفظ، تعبر كناية عن صفات سبع في الكافر وهي: الحرص والشره وطول الأمل والطمع وسوء الطبع والحسد وحب السمن، وقال القرطبي هي شهوات الطعام السبع: شهوة الطبع وشهوة النفس وشهوة العين، وشهوة الفم وشهوة الأذن وشهوة الأنف وشهوة الجوع، ويكفي المؤمن شهوة الجوع فهي ضرورية وأما الكافر فيأكل بالجميع...، ورأى القاضي أبو بكر العربي أن ا لأمعاء السبعة كناية عن الحواس الخمسة والشهوة والحاجة "[40]؛يا له من حديث عجيب جليل تعددت قراءاته وشروحاته ولكنها لم تخرج عن دلالته العامة 'الزهد للمؤمن والاستكثار للكافر'فحققت الكناية بعرضها للمعاني بأسلوب غير مباشر أن حولت الألفاظ إلى إشارات للمعاني التي يصبح وقعها في النفس أجمل وتأثيرها أبلغ وأعمق، والتماس الكناية في التعبير لقدرتها على تجسيم المعاني وإخراجها صورة محسوسة تزخر بالحياة.

ب- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الموبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ قَالَ: الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفِ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ**)[41]، يأتي هذا الحديث العظيم في سياق الترهيب وتحريم كبائر

مملكة للعباد أحصاها النبي الكريم عليه الصلاة والسلام عددا في سبع مملكات سماها موبقات، وقد ابتدأ الحديث بفعل الأمر 'اجتنبوا' ليسترعي الأسماع والأذهان فالموضوع جلل، ثم وصف له بالموبقات مع عددها؛ ما يجعل المتلقي أكثر انتباها واهتماما وتشوقا، دليله استفهام الصحابة رضي الله عنهم 'وما هن؟' وما في الصيغة من استعجال لذكرها لحرصهم رضي الله عنهم على تعلم ما لهم وما عليهم في دينهم، وأسلوب النبي عليه الصلاة والسلام جاء تحقيقا لهذ ا الغرض لحرصه عليه الصلاة والسلام على تعليمهم.

وجاء الخطاب النبوي المبارك موجزا مركزا لأنه في سياق عد وإحصاء لأمور بعينها؛ وعلى إيجازها البليغ حملت صورا بيانية بديعة مختصرة منها الاستعارة المكنية في قوله: (وأكل الربا، وأكل مال اليتيم)؛ وهما استعارتان مكنيتان جسد فيهما كل من الربا ومال اليتيم اللذين جاءا مشبهين بالطعام (المشبه به/المستعار منه) المحذوف مع قرينة مقالية وهي لازم الأكل في صورة توحي بخطورة ذلك.

والذي يعنينا في هذا المقام هو الصورة الكنائية التي جاءت في آخر الحديث في قوله عليه الصلاة والسلام: (وقذف المؤمنات الغافلات)؛ وهي كناية عن صفة البراءة التي تتصف بها المؤمنات؛ فالبريئة غافلة عما تقذف به وتتهم، فجاءت صفة الغفلة موحية بكلمة واحدة شكلت صورة مؤثرة دلت على تخير دقيق للفظ مع مراعاة المناسبة والصحة وهذا ما يؤكد السمو البلاغي للخطاب النبوي.

الخاتمة:

أسهمت الصور البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية ببديع تركيبها وفائق جمالها في إضفاء ملمح بياني راق وقيم تعبيرية عميقة وسامية، أثارت المتلقي للسعي وراء المعاني الجليلة في سمتها الإيماني والعبادي لما لها من قيمة إبلاغية وتأثيرية، ناهيك عن قيمتها الجمالية القائمة على التصريح والتلميح، لتحدث انفعالا في نفس المتلقي لأنها تفوق اللغة العادية فيما تحقق من أغراض، نتيجة توظيفها الجمالي القادر على تصوير الأحاسيس الغائرة والأفكار العميقة والمعاني الجليلة والمبادئ السامية في علاقة اللغة بالواقع؛ فقد وصل لنا الدين بسهولة ويسر- لحسن بلاغة النبي عليه الصلاة والسلام التي وصل بها إلى كل ما هو نافع مفيد، وذلك بلفت الانتباه وتحويله إلى الأغراض المعنوية العميقة للصورة، ودلالاتها التعبيرية وعلاقتها بالحقائق الطبيعية والعلمية والعقدية والعبادية.

ولذلك تجب العناية بقول رسول الله عليه الصلاة والسلام بلاغيا عناية تناسب مكانة هذا القول وإبداع هذا البيان الذي لم ينل الحظ الذي يليق به من التحليل الواعي الذي يقف فيه طلاب العلم على ما في بيان رسول الله من عناصر الأدب الرفيع الذي اجتمعت له فصاحة اللفظ وحلاوته ومناسبته

للمعنى والغرض والسياق كما اجتمع له عمق المعنى ونصاعته وجدة الأفكار وترابطها بحيث يستطيع المتلقي استيعابها وجمعها والانتفاع بها.

هوامش:

* - لما كانت دراستنا متعلقة ببلاغة الصورة في البيان النبوي الكريم، وبيان قيمتها وخصائصها التعبيرية كان لا بد من الطمأنينة إلى النصوص محل الدراسة فكان الاهتمام بأحاديث من صحيح البخاري، وقد كان الاعتماد على كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني.

[1] - النجم، 3-4

[2] - ينظر: كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار اقرأ (بيروت)، ط1 (1984م)، ص12.

[3] - أخرجه أبو داود في سننه، باب لزوم السنة، رقم الحديث 4591.

[4] - كمال عز الدين: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص23.

[5] - مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي (بيروت)، ط8 (2005م)، ص194.

[6] - الجاحظ: البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، (بيروت)، ج2 (دت)، ص31.

[7] - أحمد بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الحديث (القاهرة)، (2004م)، ج6، ص145

[8] - مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص193.

[9] - ينظر: عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر (بيروت)، (دت)، ص79.

[10] - محمد الطاهر بن عاشور: موجز البلاغة، المطبعة التونسية (تونس)، ط1 (دت)، ص6.

[11] - المرجع نفسه، ص 31.

[12] - ينظر: محمد أبو العلا الحمزاوي: بلاغة الوصف في الحديث النبوي من خلال الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية، مجلة جامعة جازان-فرع العلوم الإنسانية (السعودية)، مجلد1، عدد1، ديسمبر(2011م)، ص10.

[13] - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني، (جدة)، ط3 (1992م)، ص330.

[14] - محمد رجب البيومي: البيان النبوي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع (المنصورة)، ط1 (1987م)، ص229.

[15] - جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي (بيروت)، ط3 (1992م)، ص172.

[16] - عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، اعتنى به: مصطفى الشيخ مصطفى وميسر عقاد، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط1 (2007م)، ص78.

[17] - جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص172.

[18] - عبده عبد العزيز قلقيلة: البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي (القاهرة)، ط3 (1992م)، ص37.

[19] - جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ص174.

[20]- أبو هلال العسكري: الصناعتين، 'الكتابة والشعر'، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، (صيدا/ بيروت)، (1986م)، ص 262.

[21]- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقم الحديث 6416، ج11، ص263.

[22]- المصدر نفسه، ص 263.

[23]- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقم الحديث 5427، ج9، ص634.

[24]- ينظر: محمد رجب البيومي، البيان النبوي، ص233.

[25]- المصدر نفسه، رقم الحديث 6005، ج10، ص491.

[26]- المصدر نفسه، رقم الحديث 528، ج2، ص14.

[27]- كمال عز الدين: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص56

[28]- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص20.

[29]- ينظر: عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص431.

[30]- محمد الولي: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، (بيروت/ الدار البيضاء)، ط1 (1990م)، ص28.

[31]- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 29.

[32]- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقم الحديث 6209، ج10، ص668.

[33]- المصدر نفسه، ص669.

[34]- المصدر نفسه، ج1، ص111.

[35]- عز الدين كمال: البلاغة النبوية من الوجهة البلاغية، ص211

[36]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص60.

[37]- عز الدين كمال: البلاغة النبوية من الوجهة البلاغية، ص212

[38]- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، رقم الحديث 5396، ج9، ص615.

[39]- المصدر نفسه، ص616.

[40]- المصدر نفسه، ص618.

[41]- المصدر نفسه، رقم الحديث 6857، ج12، ص208.

قائمة المراجع:

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- **الكتب:**

1. أحمد بن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الحديث (القاهرة)، (2004م).
2. جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي (بيروت)، ط3 (1992م).

3. الجاحظ: البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، (بيروت)، ج2 (دت).
4. عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر (بيروت)، (دت).
5. عبده عبد العزيز قلقيلة: البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي (القاهرة)، ط3 (1992م).
6. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، دار المدني، (جدة)، ط3 (1992م).
7. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، اعتنى به: مصطفى الشيخ مصطفى وميسر عقاد، مؤسسة الرسالة (بيروت)، ط1 (2007م).
8. كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار اقرأ (بيروت)، ط1 (1984م).
9. محمد رجب البيومي: البيان النبوي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع (المنصورة)، ط1 (1987م).
10. محمد الطاهر بن عاشور: موجز البلاغة، المطبعة التونسية (تونس)، ط1 (دت).
11. محمد الولي: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، (بيروت/ الدار البيضاء)، ط1 (1990م).
12. أبو هلال العسكري: الصناعتين، 'الكتابة والشعر'، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، (صيدا/ بيروت)، (1986م).
13. مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي (بيروت)، ط8 (2005م).

- المجلات:

14. محمد أبو العلا الحمزاوي: بلاغة الوصف في الحديث النبوي من خلال الصحيحين دراسة بلاغية تحليلية، مجلة جامعة جازان-فرع العلوم الإنسانية، المملكة العربية السعودية، مجلد1، عدد1، ديسمبر (2011م).